إستراتيجية الأمن الفكري وعقلنة التعليم

الباحث

صالح الوائلي

عضو هيئة علمية و مؤسس في

اكاديمية الحكمة العقلية – قم - ايران

مقدمة

موضوعة الأمن الفكري بمكان لا تقل أهمية وخطورة عن الأمن الاجتماعي إن لم تكن تفوقه بكل أبعاده، بل لا مبالغة في القول أن متانة الأمن الإجتماعي أو هشاشته تعتمد بصورة أساسية على مستوى الإمن الفكري ومدى متانة ، لأن ضمان الأمن الأجتماعي يقوم على أساس مبدأ التآلف والإنسجام بين أفراد المجتمع والتآلف والإنسجام بين أفراده لا يمكن أن يتحقق ما لم تكن هناك فكرة مشتركة تعيش في أذهانهم يتمحورون حولها وهذه الفكرة هي التي تتولد عنها جملة من النظم والقوانين التي تحكم المجتمع وتنظم علاقاتهم ، والتي يعبر عنها بالفكرة المركزية ، وهذه هي العلة الحقيقية التي تقف وراء متانة النسيج الاجتماعي وانسجامه افراده ومكوناته المختلفة ، فتشكل المجتمع يبدأ من هذه الفكرة وكذا بقائه واستمراره ، من هنا نحتاج إلى ما يحفظ لنا بقاء هذه الفكرة حية في أذهان الناس ويضمن عدم وجود ما يشوش عليها ، من هنا مست الحاجة إلى البحث عن الأمن الفكري للحفاظ على استمرار علاقة الناس الذهنية بتلك الفكرة، وليقف حائلا دون حصول تشويش يربك تمحور الناس حولها.

الفكرة المركزية :

الفكرة المركزية عبارة عن رؤية مشتركة في ذهنية مجموعة من الناس تنتج تآلفا وانسجاما بينهم وينبثق عنها كيان موحد يتسع ويكبر بقدر فاعلية هذه الفكرة وسعة انتشارها ، وهي قد تتمثل بوحدة الدم والنسب أواللغة (القومية)كما في التشكيلات ذات الطبيعة القبلية والمجتمعات التي تنتمي إلى سلالة معينة كالجنس الآري أو لغة واحدة كالعربي والكردي ،

أو تتمثل بوحدة الأرض التي يعيشون عليها والمعبر عنها بـ (الوطن) أو وحدة المعتقد (الدين أو الطائفة) ،أو وحدة الرؤية الفلسفية أو الاقتصادية أو السياسية، أو وحدة المهنة مثل النقابات والجمعيات ، أو وحدة الهدف والبرنامج كما في الاحزاب السياسية ومؤسسات المجتمع المدني ، أو وحدة الأسرة (الزوجية)وغير ذلك ، فإن أي تجمع لا يمكن أن يتحقق ويحصل التآلف بين أفراده ما لم تكن لديه رؤية مشتركة يؤمن بمحوريتها ويلتزم بلوازمها .

وكلما كانت الفكرة المركزية حية في إذهان الناس متجذرة في نفوسهم ، كلما ازداد تماسكهم واشتد ترابطهم وتآلفهم وبالتالي ينتعش أمنهم الاجتماعي وتضمحل روح الجريمة وينحسر العداء بين أبناء ذلك المجتمع ويستقر تبعا لذلك نظامهم السياسي والاقتصادي والاجتماعي وتزدهر حياتهم.

ووجود الفكرة المركزية في أذهان الناس لا يعني خلوها من غيرها ، فهناك ثمت أفكار كامنة وخاملة أو أقل فاعلية وظهورا تمثل خلاية نائمة في ذهنية الفرد والمجتمع وتشكل تهديدا مستمرا لمصير الفكرة المركزية وتنتظر فرصة النهوض والانقضاض عليها والحلول محلها ، وهذه الافكار متى ما نشطت في ظروف خاصة بتأثر أو تأثير من عوامل داخلية أو خارجية تشتد فاعليتها وتفرض وجودها وحاكميتها على سائر الأفكار الأخرى ، فتأخذ قناعات الناسب التغير التدريجي إزاء الفكرة المركزية لتتحول عنها إلى الفكرة الجديدة، فتكتسب صفة الأولوية بسبب المتغيرات والمعطيات الجديدة لتحتل موقع المعيارية للألفة والانسجام أو الفرقة والاصطدام ، وعندها تصبح سبب الحصول تغيرات اجتماعية أو تحولات ديموغرافية جديدة ، قد تؤدي إلى سعة أو ضيق كمية الأفراد المتمحورة حول هذه الفكرة التي بدورها تصنع لنا مجتمعات قد تكون أضعف أو أقوى من الحالة السابقة .

وعليه فإن تبدل الفكرة المركزية ليس سلبيا دائما، بل قد يكون أمرا ايجابيا فيما لو انطلق المجتمع إلى فكرة واقعية فيها صلاحهم وتقدمهم وسعادتهم ، وهذا ما يسعى إليه كافة المصلحين والحكماء ، قال تعالى : (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين) . فالناس كانوا على فكرة مركزية تجعلهم أمة واحدة ، غير أن هذه الفكرة تدعو إلى الشر والباطل والفسق والفجور واحتقار القيم الإنسانية ، وتسافل المجتمع البشري إلى

مستوى البهيمية بل إلى ما هو أدنى ، فبعث الله الأنبياء ليبشروا بالفكرة المركزية الجديدة التي ينبغي أن يقوم بنيان المجتمع على أساسها، محذرين ومنذرين من عواقب ما هم عليه والخطر العظيم الذي ينتظرهم فانتزعوا منهم أمة مؤمنة تدعو إلى الخير والصلاح ، قال تعالى : (ولتكن منكم أمة يدعو إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) ، هذه الأمة تتمحور حول فكرة الرب الواحد الذي ينبغي للمجتمع الاتصال به وأخذ قوانينهم العملية منه لأنه هو خالقهم وهو اعلم بما يحتاجون في سبيل تكاملهم ، وبسبب هذا الأمر حصل الصراع الحقيقي بين أمة الخير وأمة الشر وسوف يستمر هذا الصراع حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

ثم أن الفكرة المركزية قد تكون ايجابية من حيث الكيف لكنها سلبية من حيث الكم ، كما لو كانت هذه الفكرة واقعية غير أنها تفتقر للجاذبية والزخم الذي يحمل الناس للتمحور حولها وبالتالي فإنها لا تستوعب الكم الذي تستحقه ، لأنها وإن حضيت بقوة من جهة واقعيتها بيد أنها تتقزم أمام الأفكار التي يكون فيها استقطاب جماهيري أكبر، وأحيانا العكس أي أنها أكثر استيعابا لاشتمالها على جاذبية وزخم كبير غير أنها تجانب الواقع وتكون للخرافة أقرب منها إلى الواقع .

والفكرة التي تستحق أن تتصدر الأفكار والمحورية، هي التي تتوفر على إيجابيات كيفية وكمية معا ، بمعنى أنها واقعية وتحتوي على زخم وجاذبية يستقطبهما كمّا جماهيريا يؤهلها لأن تتصدر المحورية والمركزية ، وينشأ على ضوئها كيان المجتمع .

وهذه الفكرة هي التي تكون أكثر صمودا أمام التهديدات والتحديات الداخلية والخارجية ، وأكبر مقاومة لثنائية الافكار الخاملة ، كما أنها تمتلك قدرة الوقوف أمام السجالات الفكرية المختلفة ، وهذا ما سيأتي بحثه بشكل تفصيلي في الاستراتيجية.

وبهذا يتضح أن الجانب الفكري للإنسان هو مبدء جميع التحولات الاجتماعية ، فالثورة على الظلم والفساد ، للارتقاء نحو القيم والمبادئ السامية ، وكذا التمرد والعصيان، والتسافل نحو التحلل والاستهتار كل ذلك تبدأ معركته قبل كل شيء في المستوى الذهني للناس ، فإذا ما حسم هناك وتكوّنت الفكرة المركزية على أساس نتيجة الصراع الذهني ،

يتحقق التفاعل النفسي معها ليتشكل الإيمان الذي بشكل حتمي يستتبع سلوكا خارجيا يدعو وبصور مختلفة إلى تبني نظام ومشروع سياسي منبثق من الفكرة المركزية الجديدة ومن ثم تعاد صياغة تركيبة المجتمع ونظام حكمه على أساسها.

وبطبيعة الحال فإن سعت الفكرة المركزية أو ضيقها سيؤثر تأثيرا طرديا من الناحية الكمية والكيفية على أفراد الجماعة والكيان الذي يجمعهم ، فالفكرة الواقعية سوف تخلق لنا مجتمعا واعيا يتعامل على اساس نظام واقعي وبمعايير منطقية لا يسمح لنفسه أن يستغل ولا أن ينقاد إلا لمن يستحق ذلك حسب النظام الواقعي وهذا هو المجتمع الآمن فكريا ، وأما الفكرة الخرافية فإنها لا تنتج لنا إلا مجتمعا خرافيا فوضويا يتفشى فيه الجهل والفساد ويسهل استغلاله من قبل المشعوذين والظلمة والمستبدين والمفسدين وهذا هو المجتمع المخترق فكريا .

ثم أن الفكرة المركزية كلما كانت قوية وثابتة وحية وراسخة في عقول الناس كلما كانت أكثر صمودا ومقاومة للتحديات ، وبالتالي أدوم وأبقى لوحدة الجماعة ، وبالتالي تحقق الأهداف المجتمعية ، وكلما كانت هشة هزيلة ، كلما كانت في معرض التبدد والاضمحلال والتلاشي المستتبع لتغيير في المعادلات المجتمعية والكيان العام.

إذن النظام المجتمعي والكيان العام الذي تنضوي تحته مجموعة من الأفراد يكون مصيره مرهونا حدوثا وبقاء بالفكرة المركزية ، وقد أشارت لذلك جملة من النصوص الدينية ، كما في قوله تعالى : (إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون) فالفكرة المركزية التي تشير إليها الآية والتي ينبغي أن تتمحور الأمة حولها وتتوحد هي رؤية فلسفية دينية تثبت أن الله رب لهذا الوجود ، وقوله تعالى (فاعبدون) اشارة إلى ما يتفرع على هذه الرؤية الفلسفية منجانب عملي سلوكي يعزز هذه الرؤية ويحقق اهدافها في تكامل الإنسان على المستوى العملي.

فانتشار هذه الفكرة وارتكازها في ذهنية المسلمين هي التي تجعل منهم أمة واحدة منسجمة ومستقرة ، فوحدة أمتنا متوقف على إيماننا بفكرة وحدة الرب المستتبع للتسليم بجملة من النظم والأحكام التي يتطلب من جميع الأفراد إجراء سلوكياتهم على طبقها.

كما قد أشارة بعض المفكرين إلى ضرورة حصول الفكرة المركزية كشرط أساسي لبناء الجماعة واستمرارها ، من قبيل ما اشار إليه ابن خلدون في مقدمته منأن شرط إقامة الدولة وبقائها العصبية .

وكذا ما جاء في كلام لينين حينما تحدث عن حاجة الثورة إلى شرطين أحدهما تنظيم جماهيري ثوري ، فإنه لا يتصور حصول تنظيم جماهيري ما لم يكن هناك فكرا معينا يجتمعون عليه ، وهذا الفكر متى تلاشى فإنه لا وجود لشيء أسمه ثورة أو جماهير ثورية .

وهناك أمثلة كثيرة للمجتمعات التي انهارت وتحولت إلى كيانات صغيرة أو دويلات بسبب انهيار الفكرة المركزية وتلاشي ايمانهابها، ومن الأمثلة المعاصرة ماحصل في المجتمع السوفييتي الذي كان يحمل رؤية فلسفية خاصة لما يقرب من ثمانين سنة ،تم اختراقها والتشويش عليهابمفاهيم جذابة، كإعاة الهيكلة (البروسترويكا) والانفتاح (القلاسنوست) التي أدت إلى تفتت هذه الدولة العظمى في غضون ساعات لتتحول بعد ذلك إلى دويلات ضعيفة لا تقوى على حماية نفسها.

وهنا تبرز أهمية الحفاظ على الفكرة المركزية التي يقوم عليها النظام ويستقر في ظلها الأمن الأجتماعي ،ودور الأمن الفكري هو تفعيل برامج تعمل على ترسيخ الفكرة المركزية وصيانتها والتثقيف عليها وحث الناس للالتزام بالنظام المتفرع عليها فشيوع ثقافة التزام الناس بالنظام يعكس مدى تقبلهم الفكرة المركزية وشدة إيمانهم بها ، كما من دور الأمن الفكري مواجهة الأفكار الدخيلة والحد من تشويشها على أذهان الناس.

الفصل الأول

مفردات البحث

أولا : مصطلح **الاستراتيجية** من المصطلحات القديمة المأخوذ من الكلمة الإغريقية Strato و تعني الجيش أو الحشود العسكرية، ومن تلك الكلمة اشتقت اليونانية القديمة مصطلح Strategos وتعني فن إدارة وقيادة الحروب.

ويستعمل مصطلح الإستراتيجية بمعنى أصول القيادة الذي لا اعوجاج فيه، فهي تخطيط عال المستوى، فمن ذلك الإستراتيجية العسكرية أو السياسية التي تضمن للإنسان تحقيق

الأهداف من خلال استخدامه وسائل معينة، تعني الطريق أو الإستراتيجية، فهي علم وفن التخطيط والتكتيك والعمليات، ثم استعملت هذه الكلمة في المجالات المتعددة في شتى مناح الحياة العامة.

ونعني بها في البحث وضع الخطط والسياسات من أجل توفير وتعزيز الأمن الفكري للمجتمع .

ثانيا: مفردة الأمن ـ في اللغة ـ ضد الخوف ، قال تعالى : (وليبد لنهم من بعد خوفهم أمنا) ، وفي المصطح له تعريفات مختلفة ، منها:

١. الجرجاني في تعريفاته : (عدم توقع مكروه في الزمان الآتي)
٢. تعريف هنري كيسنجر :(Henry Kissinger) (الأمن هو التصرفات، التي يسعى المجتمع عن طريقها إلى حفظ حقه في البقاء)
٣. تعريف تريجر، وكرونبرج :Trager Kronenberg (تشكل القيم الوطنية الحيوية جوهر سياسة الأمن الوطني، ويتحدد الأمن بأنه، ذلك الجزء من سياسة الحكومة، الذي يستهدف إيجاد شروط سياسية دولية ووطنية ملائمة، لحماية، أو توسع القيم الحيوية ضد الأعداء الحاليين، أو المحتملين).
٤. تعريف لورنس كروز، و ج. ناى: Lawrence Kranse, J. Nye (الأمن هو غياب التهديد بالحرمان الشديد، من الرفاهية الاقتصادية)
٥. ما ورد في الموسوعة السياسية أن الأمن هو: (تأمين سلامة الدولة ضد أخطار خارجية و داخلية قدت ؤديها إلى الوقوع تحت سيطرة أجنبيّة نتيجة ضغوط خارجية أو انهيار داخلي) ،
٦. ماورد في الموسوعة البريطانية للمعارف (حماية الأمة من خطر القه رعلى يد قوة أجنبية).

وغير هذه التعريفات الكثيرة التي جميعها يراد منها تحقيق الاستقرار والطمئنينة للفرد والمجتمع لكي يتمكن من ممارسة حياة بشكل طبيعي وبالتالي يحقق له التقدم والازدهار والسعادة .

ثالثا: مفردة الفكر في اللغة كما في اللسان (إعمال الخاطر في شئ).

وفي الاصطلاح ، قد يراد منه التفكير أي عملية انتاج الفكر ، كما في تعريف المناطقة أن الفكر هو حركة العقل بين المعلومات والمجهولات .

وقد يراد من الفكر الناتج المعلوماتي والمنظومة الفكرية التي تتشكل في ذهن الإنسان نتيجة عمليات فكرية خاصة به ، أو يستقيها من الحس الظاهري أو الباطني أو يستوحيها من نصوص دينية أو فلسفية أو تأريخية أو أدبية أو حكايات خرافية أو غير ذلك . هذه المنظومة الفكرية تحتوي على ثلاثة أنواع من المعلومات الكلية :

١. معلومات متسقة حول قانون الكون الذهني والذي يشتمل على قوانين واساليب كلية لاجراء عملية التفكير (منطق التفكير).
٢. معلومات متسقة حول قانون الكون الخارجي الذي يشتمل على احكاموقوانين كلية تكوينية تحكم علاقة الوجود والإنسان ، والتي يطلق عليها الرؤية الكونية الفلسفية أو الاعتقادات الدينية ، وهذه تتشكل على طبق اساليب التفكير وقوانينه (منطق التفكير).
٣. معلومات متسقة تعبر عن القانون الكلي الاعتباري الذي ينظم أفعال الإنسان الأختيارية ، وهذا القانون منبثق من خلال الرؤية الكونية أو يتناسب مع القانون الكلي التكويني الحاكم على الوجود والإنسان وعلاقتهما ، وهو المعبر بلسان الحقوقيين بالقانون ، وبلسان الفقهاء أو المتدينين بالشريعة .

ومرادنا من الفكر هنا ما يعم عملية التفكير والناتج المعلوماتي المتحصل من تلك العملية أو من غيرها والذي يشكل المنظومة النظرية والعملية من فكر الإنسان.

رابعا : الأمن الفكري ، كمصطلح مركب من مفردتين ، ويعتبر من المصطلحات التي شاع استعمالها مؤخرا وقد ذكروا له تعريفات متعددة ، بيد أنها لم تتحرر من ربق الآيديولوجيات الخاصة وهي إلى القهر الفكري أقرب منها إلى الأمن الفكري ، فلم يحصل الفرز بين مفردتي الأمن الفكري وبين الإرهاب والقهر الفكري ، الأمر الذي أعطى مبررا لبعض السلطات المستبدة أن تمارسالقمع وفرض آيديولوجياتها

على بعض المكونات المجتمعية التي لا تنسجم واطروحاتها الفكرية ، فتعمد إلى تكميم الأفواه واعتقال كل من يخالفها الرأي وزجهم في السجون أو اعدامهم ، كل ذلك بحجة الأمن الفكري الذي لا يختلف إثنان كونه ضرورة مجتمعية مهمة ، غير أن الأمن الفكري اصبح يستخدم كما يستخدم الأمن الاجتماعي ، فإن الحكومات الظالمة والمستبدة تطلق على دوائر تعذيب معارضيها بدوائر الأمن ، حتى اصبحت مفردة الأمن تثير عند الناس الخوف الاشمئزاز وتدعوا الله أن لا يصيبها من ذلك الأمن شيئا ، فكذا الأمن الفكري الذي ينبغي أن يحقق الاستقرار الفكري والطمئنينة النفسية ، اصبح اليوم في بعض الدول مثيرا للقلق والاضطراب النفسي والفكري ، حتى أن الكثير يفضل حصول الفوضى الفكرية ، لأنها أسلم من أمن فكري ينتهي بهم إلى احد طريقين إما أن يلغي عقله أو أن يلقي حتفه . وسوف يتم التعرض لهذا المطلب في مطاوي البحث .

على كل حال مصطلح الأمن الفكري - من وجهة نظري - كل ما يحقق الاستقرار الفكري في ذهنية الفرد والمجتمع والاطمئنان النفسي الناشيء من ايمانهم بالفكرة المركزية ، ولا يحصل ذلك إلا من خلال تفعيل الحصانة الذاتية بتزويد ذهنية الفرد بمجسات طبيعية من شأنها أن تحقق توازنه الفكري وتضبط له عملية التفكير والفرز بين السقيم والسليم ، وتحسّن ناتجه الفكري وتحفظه من تلف وتآكل الثنائيات الفكرية.

الفصل الثاني

استراتيجية الأمن الفكري

ينبغي في وضع أي استراتيجية أن تحدد الأهداف والآليات والتحديات المتوقعة الداخلية والخارجية التي قد تقف دون تحقيق الأهداف.

الأهداف :

والهدف الاساسي الذي نتحرك لتحقيقه ضمن استراتيجية الأمن الفكري هو ايجاد السبل الكفيلة والقادرة على تأمين الفكرة المركزية وإبقائها حية وفاعلة في أذهان الناس دون

تشويش ، باعتبار أن الفكرة المركزية هي التي يرتكز عليها تماسك المجتمع ومتانة نسيجه ، فوحدة المجتمع مرهونة ببقاء تلك الفكرة على النحو الذي ذكرنا .

ثم أن الفكرة المركزية تتضمن جملة من الأفكار النظرية التي تشكل الرؤية الفلسفية العقدية للفرد ، من قبيل أن يؤمن الناس بنشوء العالم من إله عالم قادر ... أو أن يؤمنوا بأن نشأة العالم ووجوده من خلال تناقضات داخلية في المادة تسمى بالديالكتيك .

وعلى كل حال فإنه بناء على تلك الرؤية الفلسفية تنشأ في ذهن الفرد منظومة فكرية عملية قد يصطلح عليها(آيديولوجيته) ، وهذه الآيديولجية عبارة عن جملة من الافكار العملية التي تتضمن نوع النظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي والاخلاقي ، كما تتضمنالقوانين العامة لتلك النظم .

ونتيجة لاختيار الإنسان وإيمانه برؤية فلسفية ما ، يتفرع عليها قهرا آيديولوجية معينة ، يجد نفسه على إثرها ملزما بترتيب سلوكياته على طبقها ، لكي يصبح منسجما ومتصالحا مع نفسه ولا يقع في الازدواجية ، وسوف يتبين بعد ذلك أن الازدواجية في مقام الرؤية الفلسفية والآيديولوجية محال ، وإنما السلوك هو الذي يكون احيانا على خلاف ذلك لاسباب قهرية يأتي الكلام عنها.

وكلما كانت الرؤية الفلسفية العقدية واقعية بعيدة عن الخرافة والاسطورية كلما كان النظام العملي الآيديولوجي أكثر تأمينا لمصالح الفرد والمجتمع وبالتالي اقدر على تحقيقالسعادة الحقيقية والتكامل الفردي والاجتماعي المؤدي إلى ازدهار الحياة والتقدم والرقي بين المجتمعات .

وأما إذا كانت الرؤية الفلسفية أو العقدية مؤلفة من صور خيالية ووهمية ذات بنية خرافية ، أو قراءة قاصرة عن الكون ، فمما لا شك فيه تكون الآيديولوجية المتفرعة عنها متخلفة وبعيدة عن تحقيق المصالح الفردية والاجتماعية فيتجه الخط البياني في تنازل على كافة المستويات ، تسود حينها ، حالة الفوضى والفساد الاداري والفقر والجهل ، فتصبح الحاكمية لمنطق الغاب والقوة ، الامر الذي يفتح الباب أمام خفافيش الظلام أن ترتقي سدة الحكم

لتكوين دكتاتوريات يتوارث فيها حكم المجتمع اشر الناس خلقا وابعدهم عن الحق والمنطق فكرا.

وعلى هذا فإن الفكرة المركزية إذا كانت من نوع تتضمن رؤية فلسفية واقعية فإنها تكون أقدر على البقاء حية وفاعلة في أذهان الناس وأشد مقاومة للتشويش ، لأن الناس يتلمسون آثارها الإيجابية من خلال تحقيق مصالحهم المؤدية إلى أمنهم واستقرارهم وتقدمهم وبالتالي إلى سعادتهم.

بخلافه فيما إذا كانت الفكرة المركزية من نوع تتضمن رؤية خرافية لا تمت للواقع بصلة ، فإنها تكون في اذهان الناس باهتة متزلزلة ، غير قادرة على مقاومة التشويش ،وفي هذه الحال فإن المجتمع بين طريقين ، فإذا كان يمتلك وعيا واستقلالا فكريا يستطيع حينها أن يتخلى عن هذه الرؤية إلى أخرى وهكذا إلى ينتهي إلى ما ينسجم مع الواقع وإلا يبقى في اضطراب مستمر، وأما إذا كان يعيش عقدة الحقارة والتبعية الفكرية فإنه يحاول يقتنع نفسه بالرؤية الرؤية الحالية وينكفأ عليها ، ويفعلها من خلال شعارات خاوية يلبّس فيها على ذهنيته الخاملة ، وهذا النوع من المجتمع يكون على درجة عالية من التعصب والتشدد لافكاره ، لأنه لا يمتلك آليات الدفاع عنها فكريا ، فيخشى أن يفقدها فيتعصب حينما تتعرض للنقد والتقييم ، فيتخذ مواقف ا متشنجه أزاء من ينقدها.

الآليات :

الآليات في استراتيجية الأمن الفكري هي عبارة عن الوسائل التي تعتمد في اقراره ، وكما تقدم الأمن الفكري يستهدف ابقاء الفكرة المركزية حية في أذهان الناس ويمنع التشويش عليها ، وقد اعتمدت بعض المؤسسات الحكومية المعنية بالشأن الفكري في بعض البلدان ، ممارسات عملية قاسية ، للحيلولة دون تعرض رؤية الناس العقدية إلى زلزلة أو انهيار.

فمثلا في القرون الوسطى قامت الكنيسة ـ التي كانت تحظى بصلاحيات واسعة ـ بإنشاء محاكم التفتيش لاستجواب كل من يتبنى فكرا مخالفاللمعتقدات المقرة من قبلهم ، وقد يسجن أو يعدم بتهمة الهرطقة والكفر ، وشبيهة بهذه الطريقة تمارس اليوم في بعض البلدان

العربية الاسلامية ، حيث يعاقب الناس بالموت أو السجن لمجرد أن توجه إليهم تهمة سب الصحابة أو التعرض لزوجات النبي وغير هذه الأمور ، ونحن في القرن الحادي والعشرين ، نسمع في بعض البلدان وبشكل علني تتعقب بعض الطوائف الاسلامية لمنسجمه مع السلطة طوائف أخرى وتضيق عليها وتضطهدها ، كل ذلك بدافع (الأمن الفكري) الذي في واقعه ارهاب فكري كما اسلفنا.

ثم ان مؤسسات التفتيش الفكري أو محاكم التفتيش الجديدة وبالاستعانة بسلطة حكوماتها ـ تعمل على منع كل ما يمكن أن يشوش على العقيدة المقرة من قبلهم ، فتصدر فتاوى واحكام بتضليل الكتب التي لا تنسجمومتبنياتها وتدعو السلطة بمنع استيرادها أو تداولها بين الناس ، وإنزال العقوبات الشديدة لمن يخالف ذلك ، كما تكفر كل من يكتب أو يتبنى فكرا مخالفا، وهي من خلال هذه الممارسات تحاول أنتضع حاجزا نفسيا للناس يحول دون قرائتهم للفكر المخالف ، كما أنها تبذل جهودا كبيرة بغية غلق النوافذ الكبيرة المفتوحة في زمن العولمة ، والتي تكون مدخلا خطيرا يهدد اساس بنيانهم العقدي لأنهم بنوا عقائد الناس على اساس هش لا يصمد أمام رياح التغيير، فتارة تحاول غلق الشبكات العنكبوتية (الانترنت) وأخرى منع القنوات الفضائية ، لا بل احيانا تعطل السياحة في البلد خوفا من تأثير بعض السياح القادمون لأيام قليلة على افكار المجتمع ، وبهذا يتبين مقدار الضعف والهشاشة في البنية العقدية لمثل هذه المجتمعات .

وجميع هذه المحاولات لا تجدي نفعا ولا تدفع ضررا في زمن اصبح العالم فيه قرية واحدة ، فكل يوم هناك وسائل تكنلوجية جديدة تدخل بيوتنا وغرف نومنا وبين اطفالنا وفي مدارسنا وجامعاتنا، من غير الممكن السيطرة عليها بمثل هذه الاساليب المتخلفة التي قد تنتهي إلى توليد حالة من الرفض العام والغليان ثم إلى الانفجار ، عند ذاك لا سبيل للاصلاح ، فكل شيء سوف يخرج عن السيطرة.

فهذا النوع من الممارسات ـ في الواقع ـ هو أبعد ما يكون عن الأمن الفكري ، بل هذا يندرج تحت عنوان الارهاب والقهر الفكري ، وهو ما يجعل الناس يعيشون واقعا فكريا وذهنيا قلقا مضطربا أشد قلقا واضطرابا مما يسببه انعدام الأمن الاجتماعي أو الجسدي ،

لأن هذه الممارسات تشعر الناس بضعف وهزالة رؤاهم ومعتقداتهم الدينية ، الامر الذي يؤدي إلى تزلزل إيمانهم ، ومن الصعب على الإنسان أن يعيش في واقع لا يعرفه أو لا يعلم مصيره فيه ، وإذا كان الناس يتمتعون بمستوى ذهني جيد ، فإن اساليب المنع والحجر قد يزرع في نفوسهم حب الاطلاع على الرأي المخالف ، لإن النفس مجبولة على حب معرفة ما هو ممنوع ، وكما يقال (كل ممنوع مرغوب)، وهذا ما يفسر لنا الاعداد الكبيرة من سجناء الرأي في مثل تلك البلدان المغلقة أو التي تمارس عملية الحجب ووصد الأبواب أمام الرأي الآخر.

من هنا لابد من البحث عن آلية تجعل كل فرد من أفراد المجتمع يتحمل مسؤولية أمنه الفكري دون الحاجة إلى أن يفرض عليه ذلك من الخارج ، نعم يمكن أن تكون بعض الإجراءات الخارجية كالمنبهات تساعده في أستدامة أمنه الفكري وتشحذ إيمانه بمبادئه وأفكاره وترفع له بعض الملابسات .

وطريقة جعل الفرد هو الذي يتحمل مسؤولية أمنه الفكري ، تعتمد على أن يساهم الفرد مساهمة فاعلة في بناء رؤيته الفلسفية لا أن تملى عليه إملاء ، وتلقن له تلقينا.

ولأجل بيان كيفية جعل الفرد مساهما بفاعلية في بناء رؤيته الفلسفية وبالتالي تحمل مسؤولية أمنه الفكري ، ينبغي أن نتعرف على المدخلات التي يمكن اعتمادها في بناء الرؤية الفلسفية والعقدية .

من الطبيعي أن الرؤية الفلسفية أو العقيدة هي عبارة عن جملة أفكار كلية متسقة عن الكون والإنسان وطبيعة العلاقة التي تربطهما والقوانين التي تحكمهما، وهذا يعني أن كل من يحمل رؤية فلسفية أو عقيدة ما ، فإنه يفترض مطابقة افكاره للواقع الخارجي ، ومن تعرف على الواقع الخارجي فقد أكتشف قوانينه ، ومن اكتشف قوانينه أمكنه أن ينظم سلوكياته على طبق تلك القوانين وبالتالي سوف ينتفع منها ويدفع الضرر عن نفسه فيعيش السعادة والاستقرار ، فمثلا ، من تعرف على واقع الذرة ونواتها فإنه قد أكتشف قوانينها ، وبالتالي فإنه يحاول تنظيم سلوكياته - في خصوص هذا المورد - على طبق تلك القوانين ، فيستفيد منها في مجالات الحياة المختلفة ... ويتجنب اضرارها المميته والكارثية ، فيهنأ ويسعد.

إلا أن السؤالهو أننا كيف نتمكن من استحصال تلك الرؤية التي ندعي أنها الواقع ؟ وبعبارة أخرى : ما هي المدخلات المعرفية التي تكون سببا لاعتقادنا بأن الواقع كما نتصوره في أذهاننا؟

ويمكن حصر المدخلات المعرفية أوأدواتها في أربعة رئيسية:

أولا : المدخل الحسي الظاهري :

هذا أول المدخلات التي يتعاطى معها الإنسان وهو الذييؤمن له مشاهداته الجزئية للعالم الخارجي، وهو عبارة عن الحواس الخمسة (الباصرة ، السامعة ، الذائقة ، الشامة ، اللامسة)

والحس الظاهري من أهم مناشيء المعرفة ، لذا أشار أرسطو إليه قائلا : (من فقد حسا فقد فقد علما) .

ثانيا : المدخل الحسي الباطني :

الحس الباطني والذي يعبر عنه في كلمات بعضهم بالقلب ، وهو ما يحسه الإنسان بباطنه، كإحساسه بالألم والجوع والعطش ...

والحس الباطني هو العلة المباشرة لتحريك الإنسان تجاه فعل ما أو سلوك معين ، فالذي يرى الأسد بالباصرة لا يتحرك هاربا ما لم يتولد لديه حس باطن وهو الخوف ، ومن يسمع صوت الحبيب لا يهرول للقائه ما لم يتولد لديه حس باطن وهو الشوق والوله...

ثالثا : المدخل العقلي البرهاني :

والمقصود منه المرتبة العقلية التي تستخدم البرهان طريقا للكشف عن الواقع ، وفي هذه المرتبة ينطلق العقل في احكامه على أساس محكم لا يقبل التزلزل ، وهوالقضايا البديهية والفطرية ، من قبيل استحالة اجتماع النقيضين ، وأن الكل أعظم من جزئه ، ولكل معلول علة ...

رابعا : المدخل النصي التقليدي :

لعل هذا من أكثر المدخلات التي تلعب دورا كبيرا في تشكيل الرؤية العقدية لاتباع الأديان بمختلف اتجاهاتها ، وأيضا هو الذي يكوّن العقلية التراثية في كافة المجتمعات ، هو

المدخل النصي ، والمقصود من المدخل النصي هو أن يتم الحكم على الواقع من خلال النصوص القولية المكتوبة أو الملفوظة دون أن يكون للعقل فاعلية في انتاجه ، وإنما يأخذه مسلما من مضامين النصوص لاعتقاده المسبق بكاشفيتها عن الواقع للثقة بقائلها ، اما ثقة مطلقة كالأخذ بالنصوص ذات الصبغة القدسية ، او ثقة نسبية كالأخذ من النصوص التأريخية أو الأقاويل الصادرة عن الشخصيات التي لها دور في تنشأته كالأب والاستاذ والشيخ ...

والكلام في اعتماد هذه المدخلات كمناهج معرفية لتشكيل رؤيتنا الفلسفية والدينية ، فما هي قيمتها المعرفية؟ وما مدى قابليتها على توفير المادة المعرفية التي من خلالها تتشكل رؤيتنا الفلسفية والعقدية .

اختلف اصحاب المدارس الفلسفية والكلامية في تحديد ذلك ، فمفكروا الغرب بشكل عام اتجهوا اتجاها حسيا ظاهريا ، معتبرين أن كافة المعارف التي تتحقق لدينا ليس لها واقعية ولا اعتبار علمي مالم تقاس بالمقياس الحسي الظاهري ، ولذا فإن مسائل الميتافيزقيا الدينية ليس لها قيمة معرفية عندهم لأنها غير قابلة للاثبات الحسي التجريبي ، بل أن بعضهم جعلها من الهراء الذي لا يتصف بالصدق ولا بالكذب .

أما اتباع الأديان بصورة عامة فعدوا الطريق الذي يمكن أن يؤمن لهم الواقع هو النصوص الدينية لأنها ـ حسب رؤيتهم ـ مقدسة منزهة عن الخطأ والكذب .

واصحاب السلوك الصوفي العرفاني اعتمدوا على أداة الحس الباطن (القلب) فظنوا أن كل معرفة يستطيع أن يحصل عليها الإنسان بمجرد أن يتوجه بقلبه إلى جهة النور (الله) بعد جلاء وتخلية وتحلية ولا توجد معرفة حقيقية إلا من هذا الطريق ، وكل معرفة بغيره فهي عبارة عن رسوم للحقائق لا نفس الحقائق.

واختلفت فلاسفة الاسلام في تبنيهم طرق ومناهج المعرفة فأنقسموا على ثلاثة مدارس:

المدرسة المشائية : وروادها الكنديوالفارابي وابن سينا وابن رشد ... وآخرهم السيد الداماد ، حيث التزموا ـ تبعا لارسطو ـ العقل البرهاني لإثبات مسائل الرؤية الفلسفية .

المدرسة الاشراقية: ورائدها شيخ الاشراق السهروردي ، وقد لفقت هذه المدرسة بين منهجين كل على حدة المنهج العقل البرهاني ، ومنهج الكشف الشهودي، وذهبوا إلى أن ما يحصل بالكشف الشهودي لا يمكن أن يناله العقل البرهاني.

مدرسة الحكمة المتعالية: ورائدها صدر الدين الشيرازي ، والذي لفق بين ثلاثة مناهج ، المنهج العقلي البرهاني ، والمنهج الكشفي الشهودي ، والمنهج النصي الديني.

وبنحو اجمالي أن المنهج الواقعي الذي يجعل من العقل الإنساني فاعلا في بناء رؤيته الفلسفية والعقدية هو المنهج العقلي ، واعتماد المنهج العقلي ، لا يعني اعتماد مدخل العقل فحسب وإلغاء وتهميش الأدوات المعرفية الإخرى ، بل المقصود هو أن تكون الحاكمية في مملكة الإنسان للعقل ويستخدم كافة المدخلات في أحكامه كل في دائرته ومجاله.

فالعقل حكيم لا يستخدم أي أداة من تلك الأدوات إلا في موضعها المناسب ، بمعنى أنه حينما يتعلق الأمر بإثبات شيء حسي لا يعتزل الواقع الحسي ويهمل مدخلاته الحسية ويحكم بمقتضيات العقل البرهاني ، وحينما يتعلق الأمر بحكم شرعي فإنه يدرك عدم قدرته على نيل ملاكات الأحكام الواقعية بنفسه ، لعلمه المسبق بأن ملاكات الأحكام بيد مشرعها ، سواء أكان المشرع هو الخالق أو البشر ، لذا فإنه يستعين بالنص القانوني أو الديني الذي أثبت حجيته واحقيته في مرحلة سابقة ، فيحكم بناء على ما ثبت بالنص القانوني أو الديني ما ينبغي فعله أو ما ينبغي تركه...

فالحاكم ـ بناء على المنهج العقلي ـ واحد وهو العقل ، ولكن يحكم بمستويات مختلفة ، المستوى الحسي ، والمستوى النصي ، والمستوى العقل البرهاني .

وعلى هذا يحصل الإنسجام التام بين المناهج والمدخلات المعرفية دون طغيان بعضها على بعض ، وتعمل جميعها على توفير كافة المعطيات الصالحة لتشكيل رؤية فلسفية واقعية بعيدة عن إفراط الخرافة الاسطورية وتفريط المادية ذات النزعة الحسية، فمن يبني رؤيته على اساس النصوص الدينية دون العودة إلى العقل وتحكيمه في متشابهاتها ، ولا يرجع للحس

في أطار المحسوسات والتجريبيات ، فمما لا شك فيه يقع في شرك الأوهام والخرافات وبالتالي يعجز عن مقارعة الحجة لضعف الطالب والمطلوب ، فينكفأ على ذاته ثم أنه يلجأ إلى منطق التكفير للدفاع عن معتقداته ، وبالتالي ينجر الأمر إلى اراقة الدماء والأرهاب السلوكي ، لأنه حسب تصوره وما فهمه وفق قراءته للنصوص يفترض أنه يطابق الواقع ومن يخالفه يستحق القتل والإزالة من الطريق كي لا يسبب له تشويشا غير قادر على دفعه.

وأما من يعتمد الحس لإثبات الواقع وتحصيل رؤيته الفلسفية ، فهو لا يختلف كثيرا عمن يعتمد النص ويتعصب له ، فأنى للحس أن يثبت أو ينفي وجود عالم ما وراء المحسوسات ، لأن نفي عالم ما وراء الطبيعة مغالطة يرفضها العقل ومن يحكم بذلك إنما يلغي عقله ويناقضه ، وإلغاء العقل إلغاء لجميع أحكامه بما في ذلك الأحكام الحسية ، فالحكم بأن القلم الذي في قدح الماء غير مكسور ـ مثلا ـ مع أننا نحسه ببصرنا مكسورا إنما هو حكم العقل ، فالحس ينقله لنا مكسورا كما هو في الواقع الحسي ، غير أن العقل هو من يدرك أن ما ينقله الحس خاضع لشروط هي التي جعلت منه مكسورا .

على هذا لابد من تفعيل دور العقل وجعله محورا في إنشاء رؤيتنا الفلسفية ، وإذا ما اعتمدنا هذا المنهج في ذلك ، فقد وضعنا أهم لبنة من بناء الأمن الفكري ، لأن الذي يعتمد هذا المنهج من غير الممكن أن يحصل له تزلزل في رؤيته من جهة ومن جهة أخرى أنه يتوفر على ضوابط منطقية في حواره مع الآخر يتسع افقها بسعة العقل واحكامه الذي هو العامل المشترك الحقيقي بين كافة البشر.

فلو استطاع كل إنسان أن يتجرد من مسبقاته وموروثاته الثقافية التي قذفت بها يد الاقدار والاسباب الاتفاقية ، فنوعت الناس إلى مسلمين ومسيحيين ، ويهود ، وبوذيين ، وطوائف مختلفة ، لم يكن لهم أمر اختيارها ، لأنها فرضت عليهم من آبائهم واعتنقوها بنزعة تقليدية نصية ، فإن هؤلاء لو تجردوا ونفضوا عن انفسهم تلك التراكمات سواء كانت حقا أم باطلا ، وعادوا إلى حالة العقل لاتضح لهم سبيل الرشاد دون عناء ، ولأرسى العقائد الحقة على أساس متين غير قابل للتزلزل ، فيبني أمنه الفكري واستقراره النفسي.

فالمنهج العقلي هو الطريق الأمثل لصنع الفكرة المركزية ، وهو الحصن الذي يحفظها من الاندثار ، وهو الذي يقف أمام السجالات ، وهو من يدفع التشويش مهما كانت قدرته .

فعليه تكون الآلية المتبعة لتحقيق الأمن الفكري المحكم هو اعتماد هذا المنهج واللجوء إليه في بناء رؤية الفرد والمجتمع الفلسفية ، دون الحاجة إلى تكثيف الشعارات والممارسات الاقصائية في معالجة الفكر الآخر ولا داعي إلى أسلمة أو أدينة المناهج التعليمية الأكاديمية لنخلق جيلا يحمل القيم والأخلاق الحميدة ويسعى لتحقيق المصالح العامة للمجتمع.

أما آلية تفعيل هذه الآلية سوف نشير إلى أن من أهم تلك العناصر لتفعيلها هي مجال التربية والتعليم الأكاديمي ، ولكي يتضح ذلك سوف تكون لنا وقفه على واقع التعليم بنحو اجمالي ومن ثم نضع الآليات التفعيلية للمنهج العقلي في اطار التربية والتعليم .

والمحصلة أن أهم ما يحقق الأمن الفكري أمران : الأول : طبيعة نفس الفكرة أو الرؤية الفلسفية ومدى واقعيتها وبعدها عن الخرافة ، والثاني: الآليات المتبعة في نيل وترسيخ الرؤية الفلسفية في إذهان الناس .

التحديات وسبل معالجتها:

التحديات التي تواجه إقرار استراتيجية الأمن الفكري قد تكون داخلية وقد تكون خارجية ، وكلا الأمرين يستهدفان زعزعت الأمن الفكري من خلال التشويش على الفكرة المركزية ، المستتبع لتزلزل الإيمان بها وموتها بعد ذلك ليقوم على أنقاضها افكار بديلة قد تشكل خطورة تمزيق المجتمع وانهيار بنيانه ووحدته .

التحديات الداخلية :

التحدي الأول : من أهم التحديات الداخلية التي قد تقف حائلا دون تحقيق الأمن الفكري هو مدى متانة العلاقة الذهنية بالفكرة المركزية والرؤية الفلسفية، فالرؤية الناشئة من التقليد النصي من أضعف أنواع العلاقات المعرفية ، بالتالي فهي واقعة تحت تهديد التزلزل والزوال باستمرار ، ومن هنا نجد أن من كون منظومته الفكرية عن هذا الطريق يبتلي بالتعصب والتشدد ، لأنه يخشى زوالها لعدم قدرته العقلية للدفاع عنها حيث أنها لم تحصل من اسباب

موضوعية ، فهو كمن يمتلك أرضا من غير سند قانوني ، بمجرد أن يشكك احد في ملكيته يتعصب لأنه لا يمتلك ما يثبت ذلك.

وأما الرؤية المبنية على أساس الحس ، فهي وإن كانت سليمة في اطار الحس والظواهر الحسية ، بيد أنها لا تتعدى دائرة المحسوسات ، فليس من شأن الحس إثبات أو نفي ما وراء ظواهر المحسوسات ، وبالتالي فإن الحس قاصر عن تأمين رؤية فلسفية تامة .

وهذا ما تورطت به المجتمعات الغربية والحصيلة أن هناك تقدما على المستوى المادي الحسي، غير أن تراجعا كبيرا في المستوى القيمي الأخلاقي ، وضعف في النسيج المجتمعي على مستوى الأسرة والمجتمع ، مضافا إلى القلق وفقدان الاستقرار النفسي الذي يتمتع به من يؤمن بعالم ماوراء الطبيعة ، وبالتالي أي فقدان على صعيد المادة يؤدي به إلى تعاسة كبيرة لا يتحملها بعض الأفراد فيقعون فيحالة من الأكتئاب قد تنتهي في بعض الأحيان بالانتحار ، كما أن من يؤمن بهذه الرؤية لا يرى في واقع الأمر أي قيمة للمعنويات وبالتالي لا يتفاعل مع المصالح العامة للمجتمع إلا بقدر ما تضمن له مصالحه الشخصية ، فعامل التضحية يكاد يكون معدوما في مثل هذه المجتمعات .

وأما الرؤية المبتنية على أداة القلب والكشف فمع تسليم إمكانها ، فإنها لا تحصل بهذا الطريق إلا لبعض الخواص من البشر ، مضافا إلى عدم إثبات القيمة المعرفية لهذه الأداة بمنأى عن الوسائل الأخرى النصية أو العقلية ، ثم أن ثمة مشكلة في تفسير ما يحصل بمثل هذا الطريق ، كما أنه لا يتحقق شيء على الصعيد الاجتماعي ، إنما تؤدي هذه الرؤية وهذه الطريقة إلى الفردانية والزهد في اقامة الاجتماع والنظم الاجتماعية .

أما بناء على الطريق العقلي كما ذكرنا فإنالعلاقةالذهنية بالرؤية الناشئة من هذا الطريق تكون متينة لها القدرة على الاستمرار نابضة بالحياة لأنها تولدت في الذهن بشكل طبيعي من أسبابها الموضوعية ووفق القوانين العقلية ، فليست هي دخيلة على واقع الذهن وبالتالي لا توجد هناك غرابة بين الواقعين ، وبهذا المنهج يمكن تجاوز التحدي الأول.

التحدي الثاني : من التحديات الداخلية الاستعداد النفسي لتقبل نصب مفعلات الأمن الفكري في الذهنية المجتمعية ، فإن المجتمع بعدما قطع شوطا كبيرا من

مسيرته تحت مظلت النص و حكم الحس ، فقد تكوّنت عقليته بين هذين الفكين ، ولذا نحتاج إلى جهود جبارة تتضافر فيها كافة الجهود من المؤسسات الرسمية الحكومية وغير الرسمية للعمل على تهيئة النفوس لتقبل المنهج العقلي الذي هو الأداة المثلى لنصب المفعلات العقلية لتعزيز الأمن الفكري لدى أفراد المجتمع ، فالخطوة الأولى هو توعية النخب المثقفة والكوادر التعليمية على المنهج العقلي لكي يحصل التفاعل معه ومن ثم ينزل إلى المجتمع بشكل تدريجي ، حسب الخطة المرسومة ضمن مشروع اكاديمية الحكمة العقلية.

التحدي الثالث : أن عقول الناس تتأثر سلبا وإيجابا بالسلوك العام للراعين والمتبنين للمشروع الفكري الذي يراد للناس اعتناقه والعمل على طبقه ، فمثلا من لديه مشروع ديني لابد أن يكن متدينا بالمقدار المقنع حتى يمكن أن يؤثر في الناس ويديم اعتناقهم لهذا الدين ، وفي الواقع نحتاج في مثل هذا الأمر لوجود إنسان معصوم ، وليس يتحرك بيننا معصوم ظاهر وبالتالي في حال صدور أي سلوك من المتبنين يتنافى مع مفاهيم وقيم ذلك الدين فإنه ينعكس سلبا على مواقفهم تجاه ذلك المشروع برمته ، وتكون ردة فعلهم شديدة ؛ لأن الناس سلمت عقولها بناء على ثقتهم واطمئنانهم بمن يمثل هذا المشروع الفكري ، والناس بطبيعتها العرفية العامية تحتاج إلى مثال محسوس لتمثيل الأفكار التي يدعى صدقها وواقعيتها ، من هنا لم تحصل الردة عن الإسلام في حياة الرسول الأكرم (ﷺ) ،لأنه كان مثالا متحركا لقيم الإسلام وتعاليمه واحكامه ، والناس تتأسى به وتقتدي ، قال تعالى : (لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة)، ولكن حينما فقد الناس الأسوة والقدوة حصلت الردة ، وذلك حينما تصدى لتمثيل الدين من هو ليس أهلا لذلك ، فانكشف للناس التناقض بين النظرية والتطبيق ، فحدثت الردة ، وتلتها حالات تمرد لم

تقف عند حد ، وهذا ليس خللا في استراتيجية الاسلام ، لأن الاسلام الحقيقي قد اعد من يكون رمزا ومثالا طبيعيا بعد رسول الله (ﷺ) ، فلو أن الذي جاء بعد الرسول من هو أقرب إلى صفاته ومميزاته لما حصل ذلك اطلاقا ولكان الاسلام شامخا إلى يومنا هذا ، ولا يقال قد تسلمه من يدعى الاقرب إلى رسول الله بعد ذلك فلم تنصلح الأمور ، فإن استلامه لها (بعد خراب البصرة) كما يقال ، وقد انشغل بمعالجة الفتن وارجاع الأمور إلى نصابها ولكن لم يمهل حتى اغتيل.

وعلى كل حال المعالجة الحقيقية لمثل هذا التحدي يكمن في ارساء المنهج العقلي ، لإن الناس لا تحتاج إلى تسليم عقولها ، بل أن عقولهم سوف تكون فاعلة في بناءالرؤية الفلسفية دون الحاجة إلى تمثل حقيقة رمزية خارجية تتأثر بسلوكها ، فوجود الرمز الديني بعد ذلك يكون دوره تكميلي وتتميمي لا تأسيسي ، والدور التكميلي هو ايصال الإنسان إلى المقامات التي لايمكنه الوصول إليها بنفسه وبعقله.

التحدي الرابع : الثنائيات الفكرية ، وقد تقدمت الاشارة إليها ، فهي عبارة عن افكار خاملة في الذهنية المجتمعية ، وتكون كخلايا نائمة تنتظر انهيار الفكرة المركزية لتقوم على انقاضها ، فتقسم المجتمع وتنشأ عقود وعلاقات اجتماعية جديدة قد تكون أوسع أو اضيق من الحالة السابقة ، مثلا في المجتمع الاسلامي الذي يحمل الاسلام فكرا له اولوية ، غير أن هذا الفكر يهدد بالثنائيات الطائفية أو القومية أو حتى المناطقية ، وفي بعض الاحيان تعمل السلطة على اثارة تلك الثنائيات حينما تتعرض لخطر التمرد من بعض المكونات فتثير النعرة الطائفية أو القومية أو المناطقية للسيطرة على الأوضاع وقمع المتمردين .

وهذه الثنائيات في اطار حكومة العقل والمنهج العقلي لا امل لها في الاستنهاض، فإن الذهنية التي تعتمد القوانين المنطقية والعقلية في تعاملها مع الأفكار لا تترك مجالا لوجود مثل هذه الثنائيات فضلا عن خطر قيامها مقام الفكرة المركزية .

التحديات الخارجية :

لعل من اخطر التحديات الخارجية تهديداللأمن الفكري هي وسائل الاعلام بكل اشكالها المرئية والمسموعة والمقروئه ، فإن هذا من شأنه أن يغير الكثير من مفاهيم الإنسان وقناعاته ، وبالتالي تكون الفكرة المركزية والرؤية الفلسفية في معرض التبدد والزوال ، فالعدو يعمل ليل نهار لايجاد خلخلة في الأمن الفكري الذي يترتب عليه اضطرابا في الامن الاجتماعي وبالتالي تفتت هذا المجتمع وتحويله إلى كانتونات صغيرة سهلة الابتلاع ، وقد يعبر عن هذا الاسلوب بالغزو الثقافي.

وهذا التحدي يمكن أن يشكل قلقا كبيرا في مثل المجتمعات التي اسست فكرها ورؤيتها بطريقة تقليدية نصية ، ولذا فإن بعض الدول المؤدلجة وفق رؤية دينية أو فلسفية معينة وجدت طريقها إلى أذهان الناس عن طريقرفع الشعارات والتعبئة التلقينية وفرضها بوسائل تعسفية وممارسات قهرية ، فتلجأ هذه الحكومات أو مؤسساتها المعنية بهذا المجال إلى اعتماد آلية تكميم الأفواه وصم الآذان من خلال اعتقالات مستمرة لاصحاب الأفكار المناوئه ، ومنع تداول او الاطلاع على أي وسيلة من شأنها أن تحمل ما يخالف تلك الرؤية ، ثم تقوم بتكثيف شعاراتها ، وتضمينها ضمن وسائل مختلفة خصوصا في مجال التربية والتعليم ، فيصبح هناك أدينةأو أدلجة ـ إن صح التعبير ـ للمناهج التعليمة والثقافة العامة ، الأمر الذي يصبح مملا ومزعجا ، وهذا ما نراه ونشاهدهاليوم في بعض البلدان ذات الصبغة الدينية أو الفلسفية الخاصة ، والتي تعتمد طريقة التلقين الساذج.

أما بناء على تبني المنهج العقلي وتفاعله مع الذهنية المجتمعية ، الذي يبدأ من تشييد عملية التفكير والتركيز على وضع الضوابط والموازين الفكرية ، فإننا لا نحتاج إلى كل هذا العناء ، لأن الناس سوف تكون عقولهم مجهزة بما يمنع من تسرب كل ما لا يتصف بصبغة منطقية ، فالعشوائية الفكرية لا تجد طريقها إلى عقولهم المنضبطة وفق قواعد وقوانين المنهج العقلي الصارم .

الفصل الثالث

التعليم ورؤية الحل

من أهم عناصر استراتيجية الأمن الفكري مجال التعليم الأكاديمي الذي تنشأ في أحضانه عقول الأجيال وتكبر على مائدته كفاءات المجتمع وقياداته . فالتعليم له الدور الأبرز في

عملية صياغة الشخصية المجتمعية ، لأنه كم تراكمي من المفاهيم يتلقاها افراد المجتمع من نعومة اظفارهم حتى كهولتهم ، وهو من يرسم لهم سلوكية تفكيرهم الذي ينعكس على مجمل تعاطيهم مع القضايا المختلفة .

لذا فإن الأمن الفكري يتأثر سلبا وإيجابا بالممارسة التعليمية والمنهج الذي يتبع في التعليم ، فالذي يريد رسم استراتيجية الأمن الفكري المجتمعي عليه أن لا يغفل بحال من الأحوال الجانب التعليمي والمنهج المتبع في المجال التعليمي ، فلا بد من البدءبدراسة المفردات الدراسية من حيث المضمون والمنهج ، والأساليب المتبعة في إيصال هذه المضامين . ومن ثم العمل على تنقيتها مما يشوبها ، وتعديل المنهج أو تبديلة بما يتناسب والأهداف ، والتي منها صياغة الرؤية الفلسفية والفكرة الموحدة التي يراد غرسها في أذهان الناس ، وإلا سوف تنمو الشخصية المتعلمة بنحو مشوه يعيش الازدواجية في جميع مفاصل حياته .

فمن كان نظامه المجتمعي يرتكز على فكرة مبدئية المادة وأصالة المنفعة المادية ، فإن ما يناسبه هو تكريس حالة الحس والاتكاء على المنهج التجريبي والاستقرائي باعتباره هو الطريق المؤدي إلى تحصيل تلك الأهداف المنسجمة ورؤيتهم .

أما من يشيد نظاما قائما على أساس أن الواقع أعظم من المادة والأهداف تتجاوز المنافع المادية ، فعليه أن يبحث عن منهج يؤدي إلى تلك الرؤية وهذه الأهداف ، ولابد من صياغة المضامين واساليب ايصالها بما ينسجم وتلك الرؤية .

وفي الواقع أن المنهج الذي تقوم على أساسه عمليات التفكير هو من ينبغي التركيز عليه ومعالجته ، وباصلاح عمليات التفكير يصلح الفكر وتنشأ الشخصية وفق المعادلات السليمة وبالتالي تكون ذات تأثير إيجابي فاعل في الحركة التكاملية للمجتمع .

غير أننا لو نظرنا بنحو اجمالي إلى واقع التعليم في بلداننا العربية والإسلامية لا نجد فيه الاصالة الاسلامية ولا الحادثة المادية ، بل أنه يحاول الدمج والالتقاط ، مما يؤثر سلبا على بناء الشخصية العلمية ، فمن جهة جميع المعايير التي يحاكم بها الواقع هي معايير الحس والتجربة ، وأن المتعلم من الصفوف الأولى يعرف بأن العالم عبارة عن أربعة لا خامس لها (الجماد ، النبات ، الحيوان ، الإنسان) فليس فيما درسه شيء موجود خارج عن هذه

الاربعة ، ولمعالجة هذه المشكلة حاولت بعض الحكومات في المجتمعات الاسلامية أن تضمن مناهجها التعليمية بالدروس الدينية من غير أن يوضح للطلبة من اين يمكن لنا إثبات العالم الذي يتحدث عنه الدين (الله ، الجنة والنار ، الأخلاق ، القيم ، العبادات ...) كل ما يعرفه الطالب هو أن هذه ينبغي عليه التصديق والالتزام بها ، فيقع في الازدواجية المعرفية ، فيحاول بعد ذلك أن يستعين بخياله ووهمه لاثبات هذه المسائل الغريبة عن واقع المنهج الذي تعلم على اساسه ، وهذا ما يفسر لنا الخلل التطبيقي للدين في مجتمعاتنا ، فثم من يذهب إلى التمسك بظواهر النصوص بنحو مفرط وإلغاء كل ما دونها ، وإن كانت على خلاف الواقع الحسي ، فيظن مثلا أن الأرض مسطحة لأن النصوص دلت بظاهرها على ذلك .وهناك من يتعصب لمنهج الحس والتجربة ، فيفسر النصوص الدينية على اساسها ويرفض اي شيء يخالف المشاهدات المعتادته ، ويعتبرها مرفوضه عقلا ، ويغفل عن أن رفضه العقلي إنما هو بشرط الوجود الحسي الذي اعتاد أن يأخذ أحكامه منه .

فمع كون المنهج التعليمي قائم على الحس والتجربة لاينفع أن نقحم النصوص الدينية ، لأنه لا يأخذها إلا بنحو تقليدي ساذج ، ولا يرى في نفسه - بحسب الواقع - إيمانا بهذه المعارف بقدر إيمانه وتصديقه بالمعارف الحاصلة لديه من طريق الحس والتجربة ، نعم قد يتعصب للمعارف الدينية لأنها تمثل رمزية معينة في نفسه كونه توارثها من آبائه وممن يحبهم ويرتبط بهم ارتباطا عضويا .

فإذا ما أردنا إيصال المعارف التي ترتبط بماوراء الطبيعة علينا أن نوجه ذهن المتلقي إلى تلك الجهة من خلال بناء عملية التفكير لديه على وفق المنهج العقلي الواقعي ، فبعدها لا نحتاج إلى عملية تكثيف النصوص الدينية بل أن المتعلم سوف يصل بشكل طبيعي إليها .

من هنا ينبغي أن نعيد النظر في المناهج التعليمية التي فرضت على مدارسنا وجامعاتنا ، لتحكيم المنهج العقلي الذي يتضمن بطبيعة الحال جميع المدخلات المعرفية بشكل منظم دون تجاوز أو اقصاء .

خاتمة وفيها بعض التوصيات :

١. على المعنيين في المجال التوعية الثقافية إقامة مؤتمرا خاصا للأمن الفكري .
٢. على المسؤولين في مجال التعليم إعداد لجنة خاصة لدراسة المفردات التعليمية وكشف الخلل فيها .
٣. اقترح تشكيل لجنة لكتابة المناهج التعليمية في مجال العلوم العقلية مستعينة بالخبرات العلمية من المتخصصين في العلوم العقلية .
٤. إقامة دورات خاصة للكوادر التعليمية والتربوية في مجال العلوم العقلية ، للاستفادة منها في مجال التعليم .
٥. إقامة ندوات ومؤتمرات لنشر ثقافة العلوم العقلية في اوساط المثقفين والناشطين في المجال الإنساني .
٦. تثقيف الكوادر الاعلامية على المنهج العقلي ، للاستفادة من واسئلهم في ترويج هذا المنهج لكي يصبح ثقافة عامة في أوساطنا المجتمع .
٧. على المعنيين في الجانب الفكري والثقافي والتعليمي الاستفادة من مؤسسة أكاديمية الحكمة العقلية باعتبارها راعية لمشروع الحكومة العقلية والمنهج العقلي ، ويشرف عليها متخصصين في المنهج المذكور .